

ألفاظ النبوة والرسالة في سورة الأحزاب دراسة

تعبيرية

د. رعد طالب كريم

رئيس قسم اللغة العربية / كلية التربية الأساسية / جامعة ديالى

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
أما بعد....

فهناك أكثر من سبب حفّزني لهذه الدراسة ، ومن أهم تلك الأسباب ما كان من إساءة لجناح النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الذي رفع الله ذكره وعظم شأنه فكان هذا بعض الوفاء له عليه الصلاة والسلام.

كما لفت انتباهي التناسق المنتظم لألفاظ الرسالة والنبوة في القرآن الكريم بشكل عام وفي سورة الأحزاب بشكل خاص فكانت هذه الدراسة لهاتين اللفظتين والتي أعتقد حسب علمي البسيط أنها الأولى في الجانب التطبيقي بين النبي والرسول في القرآن الكريم.

ان القرآن الكريم دقيق غاية الدقة في اختيار وانتقاء الألفاظ ، ومن تك الدقة اختياره لألفاظ النبوة والرسالة في القرآن الكريم.

إن تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بوصف النبوة أو الرسالة له دلالة معينة فلا يصح إبدال أحدهما مكان الآخر .

إشتملت الدراسة على بحثين ، الأول : يتناول مفهوم النبوة والرسالة من جانب اللغة والفرق بينهما من حيث الاصطلاح.

أما المبحث الثاني فقد خص الجانب التطبيقي لهاتين اللفظتين ومشتقاتهما في سورة الأحزاب.

نسأل الله تعالى أن ينفعنا بهذا العمل انه سميع مجيب.

المبحث الأول

مفهوم النبي والرسول

النبي في اللغة إما من النبا الذي هو الخبر فالنبي هو المخبر عن الله عز وجل لأنه أنبا عنه ، وأخبر بتوجيهه وأطلعه على غيبه ، وأعلمه أنه نبيه. ويجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه يقال نبأ ونبأً وأنبا^(١).

أو من النبوة والنباوة وهي الارتفاع عن الأرض ، أي انه أشرف على سائر الخلق فأصله غير الهمز^(٢).

والنبيء : الطريق الواضح^(٣). وعلى هذا فالأنبياء هم الطرق الواضحة البينة الموصلة الى الله تعالى.

اما الرسول في اللغة : فالرسل القطيع من كل شيء والجمع أرسال ، والرسل الإبل ، وأرسلوا ابليهم الى الماء ارسالا أي قطعاً ، واسترسل اذا قال أرسل الي الإبل ارسالا وجأوا رسالة رسالة أي جماعة جماعة^(٤).

والرسل اللين يقال كثر الرسل أي كثر اللين ، والرسل كذلك الرخاء والخصب^(٥).

والمرسال : الناقة السهلة السير وإبل مراسيل^(٦).
والرسول : هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه أخذاً من قولهم جاءت الإبل رسلا أي متتابعة^(٧).

أما في الاصطلاح فقد ذهب البعض الى ان النبي والرسول بمعنى واحد^(٨)، ومنهم من فرق بينهما، والذين ذهبوا الى هذا القول اختلفوا في الفرق على وجوه أهمها:

- ان لفظ النبوة والرسالة مختلفان في أصل الوضع فإن النبوة من النبا وهو الخبر فالنبي في العرف هو المنبا من جهة الله بأمر يقتضي تكليفاً وان أمر بتبليغه إلى غيره فهو رسول والا فهو نبي غير رسول وعلى هذا فكل رسول نبي بلا عكس فإن النبي والرسول اشتراكاً في أمر عام وهو النبا واختلفا في الرسالة فإذا قلت فلان رسول تضمن انه نبي رسول وإذا قلت فلان نبي لم يستلزم انه رسول. ومن هذا فالفرق بينهما هو التبليغ^(٩).

^(١) ينظر لسان العرب: ١٦٢/١ ، وتاج العروس: ٢٢٩/١.

^(٢) ينظر لسان العرب: ١٦٤/١ ، والقاموس المحيط: ١٧٢٣/١.

^(٣) ينظر لسان العرب: ١٦٤/١.

^(٤) ينظر لسان العرب: ٢٨١/١١ ، وتاج العروس: ٧١٠٤/١.

^(٥) المصادر نفسها: ٢٨١/١١ ، و ٧١٠٥/١.

^(٦) ينظر لسان العرب: ٢٨١/١١.

^(٧) ينظر المصدر نفسه: ٢٨١/١١ ، وتاج العروس: ٧١٠٦/١.

^(٨) ينظر اعلام النبوة: ٤٢/١.

^(٩) ينظر فتح الباري: ١١٢/١١ ، وفتح المغيبي: ٣٠٠/٢.

- أن النبي هو الذي ينبيء عن ذاته تعالى وصفاته وما لاتستقل العقول بدرأيته ابتداء بلا واسطة بشر والرسول هو المأمور مع ذلك بإصلاح النوع فالنبوة نظر فيها إلى الأنبياء عن الله تعالى والرسالة إلى المبعوث إليهم والثاني وإن كان أخص وجودا إلا أنهما مفهومان مفترقان ولهذا لم يكن رسولا نبيا مثل إنسان حيوان^(١).
- من كان وحيه الرؤيا فهو نبي ومن كان وحيه على لسان الملك وهو في اليقظة فهو رسول وهذا هو الفرق بين الرسول والنبي^(٢).
- أن الرسول هو المبعوث إلى أمة و النبي هو المحدث الذي لا يبعث إلى أمة، قاله قطرب^(٣).
- أن الرسول هو المبتدئ بوضع الشرائع والأحكام و النبي هو : الذي يحفظ شريعة غيره، قاله الجاحظ^(٤).
- وينبغي الإشارة الى ان الفرق بين الرسول والنبي مقيد بالرسول البشرى والا فإطلاق الرسول كما في اللفظ هنا يتناول الملك كجبريل مثلا فيظهر لذلك فائدة أخرى وهي تعيين البشرى دون الملك فيخلص الكلام من اللبس^(٥).
- ومن هذا فقد احتاط الكثير من رواة الحديث ومنعوا التغيير في الرواية من لفظ (رسول الله صلى الله عليه وسلم) الى لفظ (النبي صلى الله عليه وسلم) فقد نقل عن ابن الصلاح وغيره المنع والتقيد بما في الرواية^(٦).

المبحث الثاني

الفاظ النبوة والرسالة في سورة الأحزاب (دراسة تعبيرية)

قبل الولوج في تفاصيل الآيات القرآنية المتعلقة بألفاظ النبوة والرسالة نذكر أن لفظة النبي أكثر ما تذكر في السورة في قضايا الجانب التشريعي ، أو ذكر أحكام تفصيلية ، أما لفظة الرسول فأكثر ما تذكر في الجانب التعبدية والعقائدي أو لبيان حكم عام أو نتيجة لأحكام سابقة.

افتتح سبحانه وتعالى السورة بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم يقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} ^(٧) وندائه بوصفه مؤذن بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم^(٨).

^(١) ينظر روح المعاني: ٩٩/٩.

^(٢) ينظر اعلام النبوة: ٤٢/١.

^(٣) ينظر المصدر نفسه: ٤٢/١.

^(٤) ينظر المصدر نفسه: ٤٢/١.

^(٥) ينظر فتح الباري: ١١٢/١١، وفتح المغيبي: ٣٠٠/٢.

^(٦) ينظر فتح المغيبي: ٢٩٩/٢.

^(٧) سورة الأحزاب: ١.

^(٨) ينظر تفسير التحرير والتنوير: ٣٣١٢/١.

وفي ندائه بعنوان النبوة تنويه بشانه وتنبيه على سمو مكانه^(١). وفيه توجيه وتعليم للناس لحسن الأدب في خطابه ومناداته.

وهذا التقديم هو مهم للغاية كون السورة ابتدأت بتنظيم جوانب من الحياة الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع الاسلامي الوليد . فجاء التوجيه الأول الى تقوى الله (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ..) وهو موجه للنبي القائم على تلك التشريعات والتنظيمات ثم التوجيه الثاني وهو النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين (وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ..) والتوجيه الثالث {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ..} فهذه هي الجهة التي تجيء منها التوجيهات والتوجيه الأخير {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا} ^(٢) ان المتأمل لهذه التوجيهات (تقوى الله - واتباع وحيه - والتوكل عليه) يجد انها عناصر الدعوة الناجحة^(٣) للأنبياء الى الله وفي ذلك توجيه للبشر للاقتداء بهم في هذه الدعوة العظيمة.

ان النداء الأول المذكور افتتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض التي سنأتي لاحقاً وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله^(٤).

والأمر للنبي بتقوى الله توطئة للنهي عن اتباع الكافرين والمنافقين ليحصل من الجملتين قصر تقواه على التعلق بالله دون غيره فإن معنى (لا تطع) : أي لا تتق الكافرين والمنافقين فإن الطاعة تقوى ؛ فصار مجموع الجملتين مفيداً معنى : يا أيها النبي لا تتق إلا الله فعدل عن صيغة القصر وهي أشهر في الكلام البليغ وأوجز إلى ذكر جملة أمر ونهي لقصد النص على أنه قصر إضافي أريد به أن لا يطيع الكافرين والمنافقين لأنه لو اقتصر على أن يقال : لا تتق إلا الله لما أصاغت إليه الأسماع إصاغة خاصة لأن تقوى النبي صلى الله عليه وسلم ربه أمر معلوم فسلك مسلك الإطناب لهذا فإن أصل صيغة القصر أنها مختصرة من جملة إثبات ونفي ولكون هذه الجملة كتكملة للتي قبلها عطفت عليها لاتحاد الغرض منهما . وقد تعين بهذا أن الأمر في قوله (اتق الله) والنهي في قوله (ولا تطع الكافرين والمنافقين) مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله فأشعر ذلك أن تشريعاً عظيماً سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمته وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين.

وفائدة هذا الأمر والنهي التشهير لهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقبل أقوالهم لئلا يسوا من ذلك لأنهم كانوا يدبرون مع المشركين المكاييد ويظهرون أنهم ينصحون النبي صلى الله عليه وسلم ويلحون عليه بالطلبات نصحا تظاهراً بالإسلام^(٥).

^(١) ينظر تفسير أبي السعود: ٨٩/٧.

^(٢) سورة الأحزاب: ٣.

^(٣) ينظر في ظلال القرآن ٢٨٢٨/٥.

^(٤) ينظر تفسير التحرير والتنوير ٣٣١٢/١.

^(٥) ينظر المصدر نفسه ٣٣١٢/١.

أما عن مناسبة اختيار لفظة النبي دون غيرها فالنبي هو المخبر عن الله تعالى وفي هذا الاختيار اشعار بعظم هذا الخبر الذي هو اعلام للناس بعظم هذه التوصيات ، اضافة لتعليمهم حسن مخاطبته صلى الله عليه وسلم.

ويستمر سياق ذكر النبي وتخصيصه بالخطاب في الآية السادسة من سورة الأحزاب بقوله تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} ^(١) والخطاب بلفظ النبوة مشعر أيضا بعظم هذا الخطاب وهذا التشريع ، وقد ورد في الحديث (ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة) ، اقرءوا إن شئتم (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ..) فأيا مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، وان ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه ^(٢).

أن سياق الآيات يحدد علاقة النبي بمحيطه من المؤمنين فكان السياق قد شمل في أول ما شمله إبطال بنوة زيد بن حارثة للنبي صلى الله عليه وسلم فكان بحيث يثير سؤالا في نفوس الناس عن مدى صلة المؤمنين بنبيهم صلى الله عليه وسلم فلأجل تعليم المؤمنين حقوق النبي وحرمة جاءت هذه الآية مبينة أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ^(٣).

ويستمر السياق لذكر مشتق آخر لنبي وهو قوله (النبيين) في قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} ^(٤) فجاء اللفظ بصيغة جمع القلة للدلالة على ان المذكورين في النص هم ليسوا أنبياء عاديين وانما لهم تخصيص ، ثم ذكر أولي العزم من الرسل الذين هم خاصية معلومة ، وربط الجميع بالميثاق (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ..) (..وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) فما الحكمة من ذكر النبيين دون المرسلين مع العلم أنهم الأقرب للذكر ؟

والجواب قد يكون لأكثر من وجه ، ومنه ان القرآن ذكر الأنبياء والنبيين للكثرة والقلة ولكنه لم يذكر جمع قلة للمرسلين فاستخدم جمع القلة (للنبيين) لأنبياء مخصوصين ، كما ان هذه اللفظة لها احياءات خاصة بالإخبار عن الله.

ثم تلفت السورة في الآية الثانية عشرة الى لفظ الرسول المعطوف على اسم الجلالة بقوله تعالى {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا} ^(٥).

فعندما تقول المنافقون ما تقولوا مكن انكار لقول النبي صلى اله عليه وسلم ووعده بالنصر جاء سياق النص بلفظ الرسول المرتبط بالله تعالى (مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ليبين تكذيبهم له هو تكذيب الله سبحانه وتعالى ، فطاعته طاعة الله وعصيانه

(١) سورة الأحزاب: ٦٠.

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٢٨٢٩/١ ، والحديث رواه البخاري ٤٦٠/١٤.

(٣) ينظر تفسير التحرير والتنوير ٣٣٢١/١.

(٤) سورة الأحزاب: ٧.

(٥) سورة الأحزاب: ١٢.

عصيان الله وهذه الآية هي مقابلة للآية (٢٢) من السورة نفسها حيث يقول سبحانه وتعالى {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} ^(١) فتصديق الرسول هو تصديق الله تعالى وتكذيبه تكذيب له.

ان سياق الآيتين وفحواهما يرجعنا الى سورة البقرة فقد كان اله تعالى وعدهم غير مرة بالنصر منها قوله في سورة البقرة {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} ^(٢) فلما رأى المؤمنون الأحزاب وابتلوا وزلزلوا ورأوا مثل الحالة التي وصفت في تلك الآية علموا انهم منصورون عليهم وعلموا ان ذلك هو الوعد الحق الذي وعدهم الله بآية سورة البقرة . وكانت آية البقرة نزلت قبل وقعة الأحزاب بعام كما رواه ابن عباس ^(٣).

فكان من مناسبة ذكر الرسول في هذين الموضعين (١٢ ، ٢٢) تقدم ذكره في سورة البقرة (٢١٤).

وهذا كله خلافا لقول المنافقين (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) فالوعد راجع الى الامرين والصدق كذلك (وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) مستعمل في الخبر عن صدق مضي وعن صدق سيقع في المستقبل محقق وقوعه بحيث يجعل استقباله كالمضي.

والمأمل لهذه النصوص يجد انها في الجانب العقائدي فناسب ذكر الرسول فيهن.

وعودة للنص الأول في الآية (١٢) فبعد سياق المنافقين يلتفت القرآن الى ذكر النبي في قوله تعالى {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} ^(٤) فكان الأنسب ذكر النبي لأن اللفظ يستقيم مع المعنى المراد.

والى الآية الحادية والعشرين حيث يقول سبحانه وتعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} ^(٥) نجد القرآن القرآن اختار لفظ (رسول الله) واللفظ منتظم في موضعه فقد أضيف الى لفظ الجلالة وليس هناك من اضافة النبي في القرآن الى لفظ الجلالة ، كما ان لفظة الرسول لها وقع خاص اذا ما خص بها النبي البشري المكلف بالتبليغ فهو القدوة الحسنة الصالحة للقيادة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

يضاف الى ذلك ان النص يزخر بلفظ الجلالة (رسول الله) (يرجو الله) (وذكر الله) كما أعقب هذه الآية قوله تعالى (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ..) وهذا من مناسبات السياق.

(١) سورة الأحزاب: ٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٢١٤.

(٣) ينظر تفسير التحرير والتنوير ٣٣٣٩/١.

(٤) سورة الأحزاب: ١٣.

(٥) سورة الأحزاب: ٢١.

ومن الملفت للنظر ان اختيار لفظ الرسول غالبا ما يأتي عند ذكر مواطن الافتقار الى الله والالتجاء اليه والتضرع له.

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذه الاحداث التي تنص عليها الآيات من الضخامة والشدة ، وكان الفزع الذي لقوه من العنف ، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا ، كما قال عنهم أصدق القائلين { هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا }^(١).

والى ترتيب دقيق منظم لذكر النبي والرسول يتطلب منا أكثر من وقفة، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُصَافَّ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ يَفْعَلْ اللَّهُ بِهِنَّ مَا يَشَاءُ لَنُصِغَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِتْنَةً وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ إِنَّهُ يُجْزِئْهُم مِّن ذُنُوبِهِمْ مَّا شَاءَ }^(٢).

الآ ترى تناسبا عجيبا في ترتيب الآيات ودقة ذكر النبي والرسول فيهما في النص الاول (نبي) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) وفي الثاني (رسول) (تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) وفي الثالث (نبي) (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ) وفي الرابع (رسول) (وَمَن يَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ يَفْعَلْ اللَّهُ بِهِنَّ مَا يَشَاءُ لَنُصِغَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِتْنَةً وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ إِنَّهُ يُجْزِئْهُم مِّن ذُنُوبِهِمْ مَّا شَاءَ) وفي السادس (رسول) (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أليس للقارىء أن يتساءل عن ذلك؟

والذي يطالعنا من النظرة المحللة للنصوص ان النبي جاء في سياق الحكم التشريعي لنساء النبي على وجه الخصوص أحيانا ولغيرهن عامة أحيانا أخرى ويأتي ذكر الرسول لتثبيت الحكم بالجانب الروحي والطاعة المطلقة المقترنة بطاعة الله تعالى ترسيخا لذلك الحكم فيبين سبحانه وتعالى الحكم الشرعي بذكره للنبي ويعضده عقائديا وروحيا بذكر الرسول المقترن بلفظ الجلالة وهذا غاية الأحكام.

والى قوله تعالى { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا }^(٣) حيث تطالعنا في النص مقابلة بين طاعة الله في قضائه وبين معصيته فيه ، وكان من ملازمة الطاعة والمعصية ذكر الرسول على اعتبار انه المبلغ لأحكام الله القائم على تنفيذها فيكون اتباعه اتباع الله ، وعصيانه عصيان الله . فناسب ذكر الرسول هذه الأحكام العظيمة ومما لا شك فيه ان عطف الرسول على لفظ الجلالة هو من أسمى صيغ التكريم والتعظيم.

(١) سورة الأحزاب : ١١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٣ .

(٣) سورة الأحزاب : ٣٦ .

ثم يلتفت السياق الى ذكر النبي في الآية الثامنة والثلاثين حينما تناول أحكامه التي جعلها الله له وفرضها عليه فاختصه بلفظ (النبي) لكي يعلم الذين وقع الخطاب عليهم ان هذه الأحكام ليست من صنعه صلى الله عليه وسلم وانما هو تشريع الله لهذا الرجل المختص بالنبوة كما ان على النبي عدم التخرج في تنفيذ الأمر السماوي وهنا حكم خاص فقد فرض الله عليه صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب وأن يبطل عادة العرب في تحريم أزواج الأعداء فلا حرج في هذا الأمر^(١). فحينما ناقش القرآن هذه الجزئية المفصلة ذكر النبي وعندما أراد أمرا مجملا تكون الطاعة به عامة ذكر الرسول معطوفا على لفظ الجلالة كما سبق ذكره.

ثم يلتفت السياق الى ذكر (الرسالة) التي هي من مشتقات الرسول بقوله تعالى ({الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ حَسِيبًا}) الأحزاب ٣٩ فيبين النص ان على الرسل ان لا يحسبوا للخلق حسابا فيما يكلفهم الله به من أمور الرسالة ولا يخشون أحدا الا الله الذي أرسلهم للتبليغ والعمل والتنفيذ^(٢). وذكر الرسالة هنا هو الأحكام الإلهية سوى ما ذكر.

والى آية أخرى جمعت الوصفين معا لندرس الحكم من دقة التعبير بكل وصف منهما ، يقول سبحانه وتعالى { مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }^(٣) فقد ذكر النص وصفا للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن بدأ باسمه (محمد) فقال (رسول الله) فهذا الرجل الذي يعيش بين ظهرانيكم هو رسول الله المنفذ لأمره وهو (خاتم النبيين) ولنا وقفة لاختيار مشتق النبي (النبيين) دون المرسلين ! والجواب والله اعلم ليكون شاملا للإثنين معا فلو قال المرسلين لأحتمل أن لا يكون خاتم النبيين على اعتبار ان النبوة أعم من الرسالة ولكن بذكره الأعم يشمل الإثنين معا ، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال [مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دار فآتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء]^(٤) ونحوه عن أبي هريرة غير أنه قال : [فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين]^(٥).

وفي اضافة الرسول الى الله تكريم له وتعظيم لأمره وهو أعظم في التلقي من المخصوصين بالخطاب.

ان المتأمل للعطف في قوله (خاتم النبيين) على صفة (رسول الله) يجد فيه تكميلا وزيادة في التنويه بمقامه صلى الله عليه وسلم وإيماء إلى أن في انتفاء أبوته لأحد من الرجال حكمة قدرها الله تعالى وهي إرادة أن لا يكون إلا مثل الرسل أو أفضل في جميع خصائصه ، وإذا قد كان الرسل لم يخل عمود أبنائهم من نبي كان كونه خاتم

^(١) ينظر في ظلال القرآن ٢٨٧٠/٥.

^(٢) ينظر المصدر نفسه ٢٨٧٠/٥.

^(٣) سورة الأحزاب : ٤٠.

^(٤) رواه البخاري ٣٦٥/١١ ، ومسلم ٤٠٤/١١.

^(٥) رواه مسلم ٤٠٤/١١.

النبيين مقتضيا أن لا يكون له أبناء بعد وفاته لأنهم لو كانوا أحياء بعد وفاته ولم تخلع عليهم خلعة النبوة لأجل ختم النبوة به كان ذلك غضا فيه دون سائر الرسل وذلك ما لا يريد به الله^(١).

وفي الآية الخامسة والأربعين يطالعنا نص جميل ومعبر ، جامع لكثير من معاني التكريم والتعظيم ، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا }^(٢) فقد ابتدأ الآية بنداء النبي وفي جرس اللفظة تناسق جميل ودقيق مع المعنى فكان ثقلا ينحدر من مكان مرتفع بانسياب جميل من النون الى الباء وختاماً بالياء وهكذا هو شأن النبي فلا تحسبوا أمره هينا ، فهي لفظة تعبر بمدلولها عن وجوب توقير المخصوص بها ، ثم يلتفت النص الى الإرسال بقوله (أرسلناك) وهذه لفظة خاصة لو تأملنا القرآن الكريم لوجدنا أنها ذكرت بهذا اللفظ ثلاث عشرة مرة وكلها مقصود بها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقصد بها أحد غيره كما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخاطب بكاف الخطاب الا في (أرسلناك) فلم يذكر القرآن (بعثناك) أو (أنبأناك) أو غيرها من ألفاظ التكليف.

والى الآية الخمسين حيث يعود الخطاب والنداء الى النبي صلى الله عليه وسلم بصفة (النبي) لقضية تشريعية أخرى ، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا }^(٣) فيتكرر لفظ النبي ثلاث مرات (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) (وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) (إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ) وفي هذا الاختيار حكمة متعلقة بالتشريع المرتبط بأدب التعامل مع النبي المكلف من قبل الله عز وجل .

قال الزمخشري : (. فإن قلت : لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى : (نفسها للنبي إن أراد النبي) ثم رجع إلى الخطاب ؟ قلت : للإيذان بأنه مما خص به وأوثر ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكملة له لأجل النبوة وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته)^(٤).

ان المتأمل للآيات السابقة يجد نداء رابعا خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم في شأن خاص به هو بيان ما أحل له من الزوجات والسراري وما يزيد عليه وما لا يزيد مما بعضه تقرير لتشريع له سابق وبعضه تشريع له للمستقبل ومما بعضه يتساوى فيه النبي عليه الصلاة والسلام مع الأمة وبعضه خاص به أكرمه الله بخصوصيته مما هو توسعه عليه أو مما روعي في تخصيصه به علو درجته^(٥).

(١) ينظر تفسير التحرير والتنوير ٣٣٦٦/١.

(٢) سورة الأحزاب : ٤٥-٤٦.

(٣) سورة الأحزاب : ٥٠.

(٤) الكشاف ١٠٠٤/١.

(٥) ينظر تفسير التحرير والتنوير ٣٣٧٥/١.

ولعل المناسبة لورودها عقب الآيات التي قبلها أنه لما خاض المنافقون في تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وقالوا : تزوج من كانت حليلة متبناه أراد الله أن يجمع في هذه الآية من يحل للنبي تزوجهن حتى لا يقع الناس في تردد ولا يفتنهم المرجفون . ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع وتشريع ما لم يكن مشروعاً لتكون جامعاً للأحوال وذلك أو عب وأقطع للتردد والاحتمال^(١).

فأما تقرير ما هو مشروع فذلك من قوله تعالى (إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) إلى قوله (وبنات خالاتك) وأما تشريع ما لم يكن مشروعاً فذلك من قوله (اللاتي هاجرن معك) إلى قوله (ولا أن تبدل بهن من أزواج)^(٢).

وفي قوله (إن وهبت نفسها للنبي) إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال : إن وهبت نفسها لك . والغرض من هذا الإظهار ما في لفظ (النبي) من تزكية فعل المرأة التي تهب نفسها بأنها راغبة لكرامة النبوة، والعدول عن الإضمار في قوله (إن أراد النبي) بأن يقال : إن أراد أن يستنكحها لما في إظهار لفظ (النبي) من التفضيم والتكريم^(٣).

وتكرير النبي هو ما نراه أيضاً في الآية الثالثة والخمسين بقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً }^(٤) حيث تكرر مرتان (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) (كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ) ثم يختمه بالحكم العام الذي يسوقه بوصف الرسالة (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) فما إن يضيف الرسول إلى الله حتى يقرن بالقدسية والجلال ، فربط الإيذاء بقوله (رسول الله) لبيان عظم الأمر^(٥).

وفي الآية السادسة والخمسين نتوقف عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }^(٦) وهذه الآية شرف شرف الله بها رسوله عليه السلام حياته وموته وذكر منزلته منه وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء أو في أمر زوجاته ونحو ذلك ، والصلاة من الله رحمته ورضوانه ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره^(٧).

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ لَقِيتُ كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ فَقَالَ : أَلَا أَهْدِي لَكَ هَدِيَّةً إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نَسَلُّمُ

^(١) ينظر المصدر نفسه ٣٣٧٥/١.

^(٢) ينظر التحرير والتنوير ٣٣٧٥/١.

^(٣) ينظر المصدر نفسه ٣٣٧٨/١.

^(٤) سورة الأحزاب : ٥٣.

^(٥) ينظر المصدر نفسه ٣٣٧٨/١.

^(٦) سورة الأحزاب : ٥٦.

^(٧) تفسير القرطبي ٢٠٥/١٤.

عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ قَالَ فَقُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ^(١)

وعن سهل بن عبد الله: (الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أفضل العبادات لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ثم أمر بها المؤمنين وسائر العبادات ليس كذلك)^(٢)

قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل الله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما^(٣).

وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الدعاء يحجب دون السماء حتى يصل على النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاءت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم رفع الدعاء^(٤).

واختيار لفظة النبي في هذا الموضع لتشريع أمر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. وما في هذه اللفظة من الوقع الجميل على النفوس في التلقي.

ثم يلتفت السياق الى الرسول المعطوف على لفظ الجلالة فيقول سبحانه {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} (٥) وهذا السياق مشابه لسياق الإيذاء الذي سبق ذكره بكونه الحكم العام لقضايا سابقة أمر الله تعالى بها.

ثم يعود السياق لذكر النبي في الآية التاسعة والخمسين لأمر تشريعي آخر يتعلق بأحكام وحجاب النساء فيقول سبحانه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} (٦).

ثم يعود السياق الى ذكر الرسول في الآية السادسة والستين بقوله سبحانه {يَوْمَ نُفَلِّقُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ} (٧) والمتأمل لفاصلة (الرسول) يجد التناسق بينها وبين الآيات الأخر في النص القرآني إضافة لعطفه على لفظ الجلالة الذي هو يأتي دائماً بفظ الرسالة دون النبوة.

ويأتي ذكر الرسول في الآية الحادية والسبعين كآخر ما ذكر في السورة من اللفظين بقوله تعالى {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ

^(١) رواه البخاري ٤٤١/١٩.

^(٢) ينظر المصدر نفسه ٢٠٥/١٤.

^(٣) ينظر المصدر نفسه ٢٠٥/١٤.

^(٤) ينظر المصدر نفسه ٢٠٥/١٤.

^(٥) سورة الأحزاب: ٥٧.

^(٦) سورة الأحزاب: ٥٩.

^(٧) سورة الأحزاب: ٦٦.

فَازَ فَوْزاً عَظِيماً^(١) وهو بيان ختامي لمن أطاع الله وأطاع رسوله وهو أمر تعبدي من صلب العقيدة التي أنزلها الله على نبيه صلى الله عليه وسلم.

النتائج

أما عن نتائج البحث فيمكن إجمالها بـ

- ان القرآن الكريم استخدم هاتين اللفظتين استعمالاً دقيقاً كل في موضعه ولا يصح ابدال أحدهما مكان الآخر وفي كل ذلك اعجاز قرآني عظيم.
- إن في لفظة النبي تقديس ورفعه فكأن (النبي) ليس من جنس البشر وإنما له أحكام خاصة ينبغي أن يعامله ويتابعه الناس بها فهو (النبي) المرتفع الشأن وهذا ظاهر من سياق الآيات المتضمنة لهذه اللفظة الجليلة.
- أما لفظة الرسول فهي بلا شك أكثر تخصيصاً من (النبي) ولكنها لفظة مشتركة بين البشر والملائكة أولاً ، وثانياً عندما تطلق على البشر قد يراد بها المصطفى من قبل الله أو أي رسول آخر وإنما الذي يحدد ذلك هو السياق ، وإن كان الأشهر في القرآن هو إطلاقها على الأنبياء المخصوصين بصفات معينة.
- ان في عطف الرسول على لفظ الجلالة زيادة تشريف ، وفيه تنويه بوحدة التشريع ببيان ان الرسول هو منفذ لأوامر وأحكام الله سبحانه وتعالى ، وهذا العطف انما يأتي في المواضع العظيمة.
- ان في سور القرآن بلاغة عظيمة في هذه الدقة ينبغي دراستها ، وما تمثله سورة الأحزاب انما هو نموذج لباقي سور القرآن الكريم.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) سورة الأحزاب : ٧١.

المصادر

- بعد القرآن الكريم
- اعلام النبوة - د.ت.
- تاج العروس من جواهر القاموس - محمد بن محمد الزبيدي . د.ت.
- تفسير أبي السعود المسمى (ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم) لابي السعود محمد بن احمد العمادي - طبعة منقحة باشراف محمد عبد اللطيف - الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت (د.ت).
- تفسير التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر (د.ت).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت (د.ت).
- صحيح البخاري (المسمى بالجامع الصحيح) - محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) - تحقيق : د. مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- صحيح مسلم - للإمام ابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري - دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني - فتح المغيـث - د.ت.
- في ظلال القرآن - سيد قطب - ط٧ - دار الشروق - بيروت - لبنان - ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل - لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨) - دار الفكر للطباعة والنشر (د.ت).
- لسان العرب - ابن منظور .د.ت.